

## المبحث الثاني: النور والظلمات في السنة النبوية

جاء في أحاديث النبي ﷺ ذكر النور والحث على اكتسابه والترغيب فيه، وسؤال الله ﷻ ذلك، وجاء ذكر الظلمات والتحذير من أسباب ذلك، ومن الأحاديث والآثار في ذلك ما يأتي:

١ - كان النبي ﷺ يقول في دعائه في آخر الليل إذا ذهب إلى الصلاة في المسجد: «اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي لساني نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، ومن فوقي نوراً، ومن تحتي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن شمالي نوراً، ومن أمامي نوراً، ومن خلفي نوراً، واجعل في نفسي نوراً، وأعظم لي نوراً، وعظم لي نوراً، واجعل لي نوراً، واجعلني نوراً، اللهم أعطني نوراً، واجعل في عصبي نوراً، وفي لحمي نوراً، وفي دمي نوراً، وفي شعري نوراً، وفي بشري نوراً»<sup>(١)</sup>.

قال ابن الأثير رحمه الله: «أراد ضياء الحق، وبيانه، كأنه قال: اللهم استعمل هذه الأعضاء مني في الحق، واجعل تصرفي وتقلبي فيها على سبيل الصواب والخير»<sup>(٢)</sup>.

وقال الإمام النووي رحمه الله: «قال العلماء سأل النور في أعضائه، وجسمه، وتصرفاته، وتقلباته، وحالاته، وجملته في جهاته الست، حتى

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه من الليل، ١٩١/٧، برقم ٦٣١٦، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، ٥٢٥/١، برقم ٧٦٣.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، باب النون مع الواو، مادة «نور» ١٢٥/٥.

لا يزيغ شيء منها عنه»<sup>(١)</sup>.

ويزيد لك وضوحاً ما بيّنه الإمام القرطبي رحمه الله حيث قال: «يمكن أن تحمل على ظاهرها، فيكون معنى سؤاله: أن يجعل الله له في كل عضو من أعضائه نوراً يوم القيامة يستضيء به في تلك الظلم، هو ومن تبعه، أو من شاء الله ممن تبعه، والأولى أن يقال: هذه الأنوار هي مستعارة للعلم والهداية، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ﴾<sup>(٢)</sup>، وكما قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾<sup>(٣)</sup> أي علماً وهداية»، ثم قال: «والتحقيق في معنى النور مظهرٌ ما ينسب إليه، وهو يختلف بحسبه، فنور الشمس: مظهرٌ للمبصرات، ونور القلب: كاشفٌ عن المعلومات، ونور الجوارح: ما يبدو عليها من أعمال الطاعات، فكأنه دعا بإظهار الطاعات عليها دائماً، والله أعلم»<sup>(٤)</sup>.

وذكر الطيبي رحمه الله: أن معنى طلب النور للأعضاء: عضواً عضواً، أن يتحلّى بأنوار المعرفة والطاعة، ويتعرّى عن ظلمة الجهالة والمعاصي؛ فإن الشياطين تحيط بالجهات الست بالوساوس، فكان التخلص منها بالأنوار السادة لتلك الجهات، وكل هذه الأنوار راجعة إلى الهداية، والبيان، وضيء الحق، وإلى مطالع هذه الأنوار يرشد قوله

(١) شرح النووي على صحيح مسلم، ٦/ ٢٩١، وانظر: فتح الباري، لابن حجر، ١١/ ١١٨.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، ٢/ ٣٩٥.

تعالى<sup>(١)</sup>: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾<sup>(٢)</sup>.

٢ - عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطَّهْرُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُنِ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ...» الحديث<sup>(٣)</sup>.

قوله ﷺ: «(والصلاة نور)»، قال الإمام القرطبي رحمه الله في شرح ذلك: «معناه: أن الصلاة إذا فعلت بشروطها: المصححة، والمكتملة نورت القلب؛ بحيث تُشرق فيه أنوار المكاشفات والمعارف، حتى ينتهي أمر من يراعيها حق رعايتها أن يقول «وجعلت قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»<sup>(٤)</sup>، أيضاً: فإنها تنور بين يدي مراعيها يوم القيامة في تلك الظلم، وأيضاً: تنور وجه المصلي يوم القيامة، فيكون ذا غُرَّةٍ وَتَحْجِيلٍ»<sup>(٥)</sup>.

وقال الإمام النووي: «وأما قوله ﷺ: «(والصلاة نور)» فمعناه: أنها تمنع صاحبها من المعاصي، وتنهي عن الفحشاء والمنكر، وتهدى إلى الصواب، كما أن النور يُستضاء به، وقيل: معناه: أن يكون أجراها نوراً لصاحبها يوم القيامة، وقيل: لإشراق أنوار المعارف، وانسراح القلب،

(١) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، ٤/١١٨٣، وفتح الباري، لابن حجر، ١١/١١٨.

(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.

(٣) أخرجه مسلم، في كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، ١/٢٠٣، برقم ٢٢٣.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند، ٣/١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥، والنسائي في كتاب عشرة النساء، باب: حب النساء، ٧/٦٢.

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، ١/٤٧٦.

ومكاشفات الحقائق لفراغ القلب فيها، وإقباله إلى الله تعالى، بظاهره وبباطنه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾<sup>(١)</sup>.

وقيل: معناه: أنها تكون نوراً ظاهراً على وجهه يوم القيامة، ويكون في الدنيا أيضاً على وجهه البهاء، بخلاف من لم يصل، والله أعلم<sup>(٢)</sup>، قلت: النور يشمل ذلك كله في كل ما ذُكِرَ والله أعلم.

٣ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً<sup>(٣)</sup> من فوقه، فرفع رأسه فقال: «هذا باب من السماء فُتِحَ اليوم لم يُفْتَح قطّ إلاّ اليوم، فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قطّ إلاّ اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أو تيتهما لم يؤتتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منها إلاّ أُعطيته»<sup>(٤)</sup>.

وقد بين الإمام القرطبي رحمه الله معنى ذلك: وأن قول الملك: «أبشر بنورين» أي أبشر بأمرين عظيمين، نيرين، تنير لقارئهما، وتنوره، وخصت الفاتحة بهذا؛ لأنها تضمّنت جملة معانٍ: الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلى الجملة فهي آخذة بأصول القواعد الدينية، والمعاهد المعرفية، وخصت خواتيم سورة البقرة بذلك، لما تضمّنته من الشاء على النبي ﷺ، وعلى أصحابه ﷺ، بجميل انقيادهم لمقتضاها، وتسليمهم

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٥ .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم، ١٠٣/٣ .

(٣) نقيضاً: أي صوتاً كصوت الباب إذا فتح. شرح النووي على صحيح مسلم، ٣٣٩/٦ .

(٤) مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة، ١/٥٥٤، برقم ٨٠٦ .

لمعناها، وابتهاهم إلى الله، ورجوعهم إليه في جميع أمورهم، ولما حصل فيها من إجابة دعواتهم، بعد أن علموها، فخفف عنهم، وغفر لهم، ونُصروا، وفيها غير ذلك مما يطول تتبعه»<sup>(١)</sup>.

٤ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن هذه القبور مملوءةٌ ظلمةً على أهلها، وإن الله عز وجل ينورها لهم بصلاتي عليهم»<sup>(٢)</sup>.

قال الطيبي رحمه الله: «أما قوله صلى الله عليه وسلم: «إن هذه القبور مملوءةٌ ظلمةً» إلى آخره، فكالأسلوب الحكيم، يعني ليس النظر في الصلاة على الميت إلى حقارته ورفعة شأنه، بل هي بمنزلة الشفاعة له، لينور قبره...»<sup>(٣)</sup>.

٥ - وعن أم سلمة رضي الله عنها في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لأبي سلمة عند إغماضه: «اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره، ونور له فيه»<sup>(٤)</sup>، وهذا دعاء عظيم لأبي سلمة، فإن النبي صلى الله عليه وسلم دعا له برفع الدرجة: أي: ارفع درجته واجعله في زمرة الذين هديتهم للإسلام، وكن الخليفة على من يتركه من عقبه: كأهله وأولاده، فاحفظ أمورهم ومصالحهم، ولا تكلمهم إلى غيرك؛ فإنهم عقبه: أي الذين تأخروا عنه، ويعني بالغابرين: الباقين، كما قال الله عز وجل: «فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ

(١) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، ٢/٤٣٤.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب الصلاة على القبر، ٢/٦٥٩، برقم ٩٥٦.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، ٤/١٣٩٥، وانظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للملا علي القاري، ٤/١٧.

(٤) مسلم، كتاب الجنائز، باب في إغماض الميت والدعاء له إذا حضر، ٢/٦٣٤، برقم ٩٢٠.

كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿١﴾: أي من الباقيين في العذاب، وغبر من الأضداد، يأتي بمعنى بقي، وبمعنى ذهب<sup>(٢)</sup>.

وقوله ﷺ: «وافسح له في قبره، ونور له فيه» أي وسّع في قبره، وادفع عنه ظلمة القبر<sup>(٣)</sup>.

٦ - وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بهاءً يدعى حُماً بين مكة والمدينة، فحمد الله، وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله: فيه الهدى والنور [وهو حبل الله المتين، من اتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على الضلالة] فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فحث على كتاب الله ورغب فيه..» الحديث<sup>(٤)</sup>.

قال الإمام النووي رحمه الله في قوله ﷺ: «هو حبل الله» قيل: «المراد بحبل الله: عهده، وقيل: السبب الموصل إلى رضاه، ورحمته، وقيل: هو نوره الذي يهدي به»<sup>(١)</sup>.

ولا شك أن العمل بكتاب الله يوصل إلى رحمته، ورضاه، وهدايته وتوفيقه، والله المستعان.

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٣.

(٢) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي، ٥٧٣/٢، وشرح النووي على صحيح مسلم، ٤٧٨/٦، وشرح الطيبي على مشكاة المصابيح، ١٣٧٤/٤.

(٣) انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للملا علي القاري، ٨٧/٤.

(٤) مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ١٨٧٣/٤، برقم ٢٤٠٨.

(١) شرح النووي على صحيح مسلم، ١٩١/١٥.

٧ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في فتنة القبر، وإجابة المسلم على الأسئلة: «ثم يُفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين، ثم يُنور له فيه»<sup>(١)</sup>، والمعنى أنه يُوسَّع له في قبره سبعون ذراعاً في الطول وسبعون ذراعاً في العرض، ثم يجعل له النور في هذا القبر الذي وُسِّع له<sup>(٢)</sup>.

٨ - وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن نتف الشيب وقال: «إِنَّهُ نَوْرُ الْمُسْلِمِ»<sup>(٣)</sup>.

٩ - وعن كعب بن مُرّة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مَنْ شَاب شَيْبَةً فِي الْإِسْلَامِ كَانَتْ لَهُ نَوْرًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٤)</sup>.

١٠ - وعن عمرو بن عبسة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ شَاب

---

(١) الترمذي، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر ٤/٢٧٤، برقم ١٠٧١، وابن أبي عاصم، في كتاب السنة، ٢/٤١٦، برقم ٨٦٤، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، ٢/٣٦٩، وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة، برقم ١٢٤٣.

(٢) انظر: تحفة الأحوذى بشرح سنن الترمذي، ٤/٦٨٣.

(٣) الترمذي، كتاب الأدب، باب ما جاء في النهي عن نتف الشيب، ٥/١٢٥، برقم ٢٨٢١، وابن ماجه، كتاب الأدب، باب نتف الشيب، ٢/١٢٢٦، برقم ٣٧٢١، وأحمد في المسند، ٢/١٧٩، ٢٠٧، ٢١٠، ٢١٢، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، ٢/٣٦٩، وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة، برقم ١٢٤٣.

(٤) الترمذي، كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل من شاب شيبه في سبيل الله، ٤/١٧٢، برقم ١٦٣٤، والنسائي، في كتاب الزينة، باب النهي عن نتف الشيب، ٨/١٣٦، برقم ٥٠٦٨، وابن حبان في صحيحه، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ٧/٢٥١، برقم ٢٩٨٣، وأبو داود بنحوه، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه، في كتاب الترجل، باب: في نتف الشيب، ٤/٨٥، برقم ٤٢٠٢، وأحمد في المسند، ٤/٤١٣، ٢٣٦، ٢٠/٦، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٣/٢٤٨، برقم ١٢٤٤، وفي صحيح سنن الترمذي، ٢/١٢٦.

شبية في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة»<sup>(١)</sup>.

١١ - وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «الشيب نور المؤمن، لا يشيب رجلٌ شبيبةً في الإسلام إلا كانت له بكل شبية حسنة، ورُفِعَ بها درجة»<sup>(٢)</sup>.

١٢ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه: «لا تنتفوا الشيب؛ فإنه نورٌ يوم القيامة، ومن شاب شبية في الإسلام، كُتِبَ له بها حسنة، وحُطَّ عنه بها خطيئة، ورُفِعَ له بها درجة»<sup>(٣)</sup>.

وقد جاءت الأحاديث الكثيرة في هذا المعنى عن أكثر من عشرة من أصحاب النبي ﷺ، وهذه الأحاديث الخمسة السابقة تبين فضل الشيب، وأنه لا يُنتَفَى؛ لأنه نور المسلم، ووقاره؛ لأن الوقار يمنع الشخص عن الغرور والطرب، ويميل إلى الطاعة والتوبة، وتنكسر نفسه عن الشهوات، فيصير ذلك نوراً يسعى بين يديه في ظلمات الحشر إلى أن يدخله الجنة<sup>(١)</sup>.

(١) الترمذي، كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل من شاب شبية في سبيل الله، ١٧٢/٤، برقم ١٦٣٥، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأخرجه ابن حبان من حديث أبي نجيع السلمي، ٢٥٢/٧، برقم ٢٩٨٤.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ٢٠٥/٥، برقم ٦٣٨٧، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، برقم ١٢٤٣. ورواه أبو داود بنحوه، في كتاب الترجل، باب في نتف الشيب، ٨٥/٤، برقم ٤٢٠٢.

(٣) ابن حبان في صحيحه ٢٥٣/٧، برقم ٢٩٨٥، وحسن إسناده شعيب الأرنؤوط، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٢٤٧/٣، برقم ١٢٤٣.

(١) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، ٢٩٣٤/٩.

فالشيب يصير نفسه نوراً يهتدي به صاحبه، ويسعى بين يديه يوم القيامة، والشيب وإن لم يكن من كسب العبد، ولكنه إذا كان بسبب من نحو جهاد أو خوف من الله ينزل منزلة سعيه، فيُكره نتف الشيب من نحو: لحية، وشارب، وعنفقة، وحاجب، قال النووي: لو قيل يجرم لم يبعد<sup>(١)</sup>.

ومن غير بالسواد لا يحصل على هذا النور إلا أن يتوب أو يعفو الله عنه<sup>(٢)</sup>. وهذا الشعر الأبيض يؤدي إلى نور الأعمال الصالحة، فيصير نوراً في قبر المسلم، ويسعى بين يديه في ظلمات حشره<sup>(٣)</sup>، ويحصل هذا الفضل بشعرة واحدة بيضاء، تكون ضياء ومخلصاً عن ظلمات الموقف، وشدائده<sup>(٤)</sup>.

وهذا الفضل في هذه الأحاديث يرغب المسلم في ترك نتف الشيب، وأعظم من النتف التغيير بالسواد، فقد نهى عنه النبي ﷺ، وحذر منه، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أتى بأبي قحافة يوم فتح مكة ورأسه ولحيته كالثغامة بيضاء، فقال رسول الله ﷺ: «غَيِّرُوا هَذَا بِشَيْءٍ وَاجْتَنِبُوا السَّوَادَ»<sup>(١)</sup>، والثغامة نبت أبيض الزهر، والتمر، شُبَّهَ بياض الشيب به، وقيل: شجرة تبيض كأنها الثلجة، أو كأنها الملح<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي، ١٥٦/٦ .

(٢) انظر: المرجع السابق، ١٥٧/٦ .

(٣) انظر: مرقاة المفاتيح، للملا علي القاري، ٢٣٥/٨ .

(٤) انظر: تحفة الأحوذى شرح سنن الترمذي، للمباركفوري، ٢٦١/٥ .

(١) صحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب استحباب خضاب الشيب بصفرة أو حمرة وتحريمه بالسواد، ١٦٦٣/٣، برقم ٤٢١٢ .

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي، ٤١٨/٥ .

وقوله ﷺ: «غَيِّرُوا هَذَا بِشْيءٍ» أمرٌ بتغيير الشيب، قال به جماعة من: الخلفاء، والصحابة، لكن لم يَصِرْ أحدٌ إلى أنه للوجوب، وإنما هو مستحبٌ<sup>(١)</sup>.

قال الإمام القرطبي رحمه الله: «أما قولهم: إن النبي ﷺ لم يخضب فليس بصحيح، بل قد صحَّ عنه أنه خضب بالحناء، وبالصفرة»<sup>(٢)</sup>، ولعل القرطبي رحمه الله يشير إلى حديث أبي رثة رضي الله عنه حيث قال: «أتيت أنا وأبي النبي ﷺ، وكان قد لَطَّخَ لحيته بالحناء»<sup>(٣)</sup>.

وعنه رضي الله عنه قال: «أتيت النبي ﷺ ورأيتَه قد لَطَّخَ لحيته بالصفرة»<sup>(٤)</sup>.

وعن زيد بن أسلم قال: «رأيت ابن عمر يُصَفِّرُ لحيته، فقلت: يا أبا عبد الرحمن، تُصَفِّرُ لحيتك بالخلوق؛ قال: إني رأيت رسول الله ﷺ يُصَفِّرُ بها لحيته ولم يكن شيء من الصبغ أحب إليه منها»<sup>(٥)</sup>، وهذا من

(١) المرجع السابق، ٤١٨/٥، وسمعت شيخنا العلامة عبد العزيز ابن باز رحمه الله أثناء تقريره على الحديث رقم ٥٠٧٣، من سنن النسائي في: ١٤١٨/٨/٢١ هـ يقول: «الخضاب سنة مؤكدة وليس واجباً».

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي، ٤١٨/٥.

(٣) النسائي، في كتاب الزينة، باب الخضاب بالحناء والكتم، ١٤٠/٨، برقم ٥٠٨٣، وأبو داود، كتاب الرجل، باب في الخضاب، ٨٦/٤، برقم ٤٢٠٦، وصححه الألباني في صحيح النسائي، ١٠٤٤/٣.

(٤) النسائي، كتاب الزينة، باب الخضاب بالحناء والكتم، ١٤٠/٨، برقم ٥٠٨٤، وأبو داود في كتاب الرجل، باب في الخضاب، ٨٦/٤، برقم ٤٢٠٨، وصححه الألباني في صحيح النسائي، ١٠٤٤/٣، وفي مختصر الشرائع المحمدية، ص ٤٠-٤١، برقم ٣٦-٣٧.

(٥) النسائي، كتاب الزينة، باب الخضاب بالصفرة، ١٤٠/٨، برقم ١٠٨٥، وصححه الألباني، في صحيح سنن النسائي، ١٠٤٤/٣.

فعله ﷺ، أما من قوله فقد ثبت عنه أحاديث:

فعن أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ أَحْسَنَ مَا غَيْرَ تَمَّ بِهِ الشَّيْبُ: الْحِنَاءُ وَالكَتْمُ»<sup>(١)</sup>.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ قَدْ خَضَبَ بِالْحِنَاءِ فَقَالَ: «مَا أَحْسَنَ هَذَا؟»، قَالَ: فَمَرَّ آخَرَ قَدْ خَضَبَ بِالْحِنَاءِ وَالكَتْمِ فَقَالَ: «هَذَا أَحْسَنُ مِنْ هَذَا»، قَالَ: فَمَرَّ آخَرَ قَدْ خَضَبَ بِالصَّفْرَةِ فَقَالَ: «هَذَا أَحْسَنُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ»<sup>(٢)</sup>.

وعن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَلْبَسُ النِّعَالَ السَّبْتِيَّةَ، وَيَصْفُرُّ لِحْيَتَهُ بِالْوَرْسِ وَالزَّعْفَرَانِ، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَفْعَلُهُ»<sup>(٣)</sup>.

وسمعت شيخنا العلامة عبد العزيز بن عبد الله ابن باز رحمه الله يقول: «وقد جاء التصفير عن ابن عمر في الصحيحين، ويستثنى من التزعفر: ما كان في اللحية، أو الشارب، أو الرأس»<sup>(١)</sup>، وسمعته أيضاً

---

(١) النسائي، كتاب الزينة، باب الخضاب بالحناء والكتم، ١٣٩/٨، برقم ٥٠٧٧-٥٠٨٠، ومن حديث عبد الله بن بريدة، برقم ٥٠٨١-٥٠٨٢، وأخرجه أبو داود، كتاب الترجل، باب الخضاب، ٨٥/٤، برقم ٤٢٠٥.

(٢) أبو داود، كتاب الترجل، باب ما جاء في خضاب الصفرة، ٨٦/٤، برقم ٤٢١١، وقال العلامة الألباني في تحقيقه لمشكاة المصابيح: «وإسناده جيد»، ١٢٦٦/٢.

(٣) النسائي، كتاب الزينة، باب تصفير اللحية بالورس والزعفران، ١٨٦/٨، برقم ٥٢٤٤، وأبو داود، كتاب الترجل، باب ما جاء في خضاب الصفرة، ٨٦/٤، برقم ٤٢١٠، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي، ٣/١٠٦٥، برقم ٤٨٣٩، وصحيح سنن أبي داود، ٢/٧٩٢.

(١) سمعته من سماحته، يوم الأحد بعد المغرب، في جامع الأميرة سارة أثناء شرحه لحديث رقم ٥٢٤٤، من سنن النسائي، بتاريخ ١٠/١١/١٤١٨هـ.

يقول: «والسنة الخضاب بالحناء أو بالصفرة، أو بالحناء والكتم»<sup>(١)</sup>.

قال الإمام القرطبي رحمه الله: «وأما الصباغ بالحناء بحتاً، وبالحناء والكتم، فلا ينبغي أن يختلف فيه؛ لصحة الأحاديث بذلك، غير أنه قد قال بعض العلماء: إن الأمر في ذلك محمول على حالين:

\* أحدهما: عادة البلد، فمن كانت عادة موضعه ترك الصبغ فخروجه عن المعتاد شهرة تُقبَّح وتكره.

\* وثانيهما: اختلاف حال الناس في شبيبهم، فربَّ شبية نقية هي أجمل بيضاء منها مصبوغة، وبالعكس فمن قبَّحه الخضاب اجتنبه، ومن حسنه استعمله، وللخضاب فائدتان:

إحداهما: تنظيف الشعر مما يتعلق به من الغبار والدخان.

والأخرى: مخالفة أهل الكتاب<sup>(٢)</sup>؛ لقوله ﷺ: «إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالقوهم»<sup>(١)</sup>، ثم قال رحمه الله: «ولكن هذا الصباغ بغير السواد، تمسكاً بقوله ﷺ: «واجتنبوا السواد»، والله أعلم<sup>(٢)</sup>، وقال رحمه الله: «وقوله ﷺ: «واجتنبوا السواد» أمر باجتنب السواد، وكرهه جماعة

(١) سمعته من سباحته أثناء شرحه لحديث رقم ٥٠٨٥، من سنن النسائي في المكان السابق، بتاريخ ١٤١٨/٨/٢٤ هـ.

(٢) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، ٥/٤٢٠.

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ٤/١٧٥، برقم ٣٤٦٢، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب في مخالفة اليهود في الصبغ، ٣/٦٣١٦، برقم ٢١٠٣.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، ٥/٤٢٠.

منهم: علي بن أبي طالب، ومالك، وهو الظاهر من هذا الحديث، وقد عُلِّل ذلك بأنه من باب التدليس على النساء؛ وبأنه سواد في الوجه، فيكره؛ لأنه تشبه بسيا أهل النار<sup>(١)</sup>، ثم ذكر رحمه الله جماعة كثيرة من السلف كانوا يخضبون بالسواد، وقال: «ولا أدري عذر هؤلاء عن حديث أبي قحافة ما هو؟ فأقل درجاته الكراهة كما ذهب إليه مالك»<sup>(٢)</sup>.

قلت: أما عذر السلف الذين كانوا يخضبون بالسواد، فيحمل على أنه لم يبلغهم حديث النهي الصريح عن الصبغ بالسواد، والله أعلم. وقال الإمام النووي رحمه الله: «ومذهبنا استحباب خضاب الشيب للرجل والمرأة بصفرة، أو حمرة، ويحرم خضابه بالسواد على الأصح»<sup>(٣)</sup>.

ويؤكد اختيار الإمام النووي ومن سلك مسلكه في تحريم الخضاب بالسواد ما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون قوم يخضبون في آخر الزمان بالسواد كحواصل الحمام، لا يريحون رائحة الجنة»<sup>(١)</sup>، وسمعت سماحة العلامة الإمام عبد العزيز بن عبد الله ابن باز رحمه الله يقول عن هذا الحديث: «إسناده جيد، وهذا يدل على

(١) المرجع السابق، ٤١٩/٥ .

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، ٤١٩/٥ .

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم، ٣٢٥/١٤ .

(١) أبو داود، كتاب الترجل، باب ما جاء في خضاب السواد، ٨٧/٤، برقم ٤٢١٢، والنسائي في كتاب الزينة، باب النهي عن الخضاب بالسواد، ١٣٨/٨، برقم ٥٠٧٥، وأحمد في المسند، ٢٧٣/١، وقال ابن حجر في فتح الباري، ٤٩٩/٦: «إسناده قوي»، وصحح إسناده العلامة الألباني في غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام، وقال: على شرط الشيخين، ص ٨٤ .

تحريم تغيير الشيب بالسواد، ويقتضي أنه كبيرة؛ لأنه وعيد»<sup>(١)</sup>.

وقوله ﷺ: «كحواصل الحمام» أي كصدور الحمام في الغالب؛ لأن صدور بعض الحمام ليست بسود<sup>(٢)</sup>.

ومما يدل على قُبْح الخضاب بالسواد ما بيَّنه بعض السلف الذين كانوا يخضبون بالسواد حيث قيل: إنه قال:

ولا خير في الأعلى إذا فسد الأصل<sup>(٣)</sup> نَسَوْدُ أَعْلَاهَا وَتَأْبَى أَصُولُهَا

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: «والصواب أن الأحاديث في هذا الباب لا اختلاف بينها بوجه؛ فإن الذي نهى عنه النبي ﷺ من تغيير الشيب أمران:

أحدهما: نتفه.

والثاني: خضابه بالسواد... والذي أذن فيه: هو صبغه وتغييره بغير السواد: كالحناء والصفرة، وهو الذي عمله الصحابة ﷺ...

وأما الخضاب بالسواد فكرهه جماعة من أهل العلم، وهو الصواب بلا ريب لما تقدم، وقيل للإمام أحمد: تكره الخضاب بالسواد؟ قال: إي والله، وهذه المسألة من المسائل التي حلف عليها... ورخص فيه آخرون،

(١) سمعته منه أثناء شرحه لحديث رقم ٥٠٧٥، من سنن النسائي، في جامع الأميرة سارة بالبدية، بعد مغرب يوم الأحد الموافق ٢١/٨/١٤١٨ هـ.

(٢) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، ٢٩٣٣/٩، ومرقاة المفاتيح، للملا علي القاري، ٢٣٢/٨.

(٣) شرح مشكل الآثار، للطحاوي، ٣١٤/٩.

منهم أصحاب أبي حنيفة، وروي ذلك عن الحسن، والحسين، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن جعفر، وعقبة بن عامر، وفي ثبوته عنهم نظر، ولو ثبت فلا قول لأحد مع رسول الله ﷺ، وسنته أحق بالاتباع، ولو خالفها من خالفها»<sup>(١)</sup>.

ويستخلص من الأحاديث الواردة في الشيب وخضابه ما يأتي:

أولاً: الشيب نور المسلم في الدنيا والآخرة.

ثانياً: المنع من نتف الشيب ثابت عن النبي ﷺ.

ثالثاً: الشيب تُزاد به الحسنات.

رابعاً: الشيب تُرفع به الدرجات.

خامساً: الشيب تُحطّ به الخطايا.

سادساً: تحريم صبغ الشيب بالسواد.

سابعاً: صبغ الشيب بالحناء، أو الصفرة، أو الحناء والكتم سنة مؤكدة.

ثامناً: الحناء: لونه أحمر، والحناء والكتم: لونه بين السواد والحمرة.

تاسعاً: من صبغ الشيب بالسواد من السلف فلا دليل له من كتاب ولا سنة.

عاشراً: لا قول لأحد مع قول رسول الله ﷺ كائناً من كان.

الحادي عشر: الشيب له أسباب غير كبر السن، فقد يكون مبكراً؛ لخوف

الله ﷻ، أو لغيره من الأسباب، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو بكر

رضي الله عنه: يا رسول الله قد شبت؟ قال: «شيبتني هودٌ، والواقعة، والمرسلات،

(١) تهذيب ابن القيم المطبوع مع معالم السنن للخطابي، ٦/١٠٤.

وعمّ يتساءلون، وإذا الشمس كورت»<sup>(١)</sup>.

وعن أبي جحيفة رضي الله عنه، قال: قالوا: يا رسول الله، نراك قد شبت؟ قال: «شيبتني هودٌ وأخواتها»<sup>(٢)</sup>، والله عز وجل الموفق للصواب.

١٣ - وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «كنت أرجو أن يعيش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يدبرنا - يريد بذلك أن يكون آخرهم - فإن يك محمد صلى الله عليه وسلم قد مات فإن الله تعالى قد جعل بين أظهركم نوراً تهتدون به بما هدى الله محمداً صلى الله عليه وسلم»<sup>(٣)</sup>.

والمقصود بالنور الذي قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: هو القرآن العظيم؛ لأن فيه الهدى والنور، فمن عمل بما فيه كان على الصراط المستقيم وعلى الحق المبين<sup>(٤)</sup>.

١٤ - وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله عز وجل خلق خلقه في ظلمة فألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول: جف القلم على علم الله»<sup>(١)</sup>، وهذا الحديث يبين أن الله عز وجل خلق الخلق في ظلمة، وألقى عليهم شيئاً من نوره، فمن أصابه شيء من ذلك النور اهتدى إلى طريق

(١) الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الواقعة، ٤٠٢/٥، برقم ٣٢٩٧، وحسنه، وصححه الألباني مختصر شمائل الترمذي، ص ٤٠، برقم ٣٤.

(٢) أخرجه الترمذي في الشمائل، وصححه الألباني في مختصر الشمائل، ص ٤٠، برقم ٣٥.

(٣) البخاري، كتاب الأحكام، باب الاستخلاف، ١٦٠/٨، برقم ٧٢١٩.

(٤) انظر: فتح الباري، لابن حجر، ٢٠٩/١٣، وإرشاد الساري، للقسطلاني، ١٨٠/١٥.

(١) الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، ٢٦/٥، برقم ٢٦٤٢، وقال: «هذا حديث حسن»، وأخرجه أحمد، ١٧٦/٢، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، ٣٠/١، وصحح إسناده العلامة الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، برقم ١٠٧٦.

الجنة، ومن أخطأه ذلك النور وجاوزه ولم يصل إليه ضل وخرج عن طريق الحق؛ لأن الاهتداء والضلال قد جرى على علم الله وحكم به في الأزل لا يتغير ولا يتبدل، وجفاف القلم عبارة عنه. وقيل: من أجل عدم تغير ما جرى في الأزل تقديره: من الإيمان، والطاعة، والكفر، والمعصية، أقول: جف القلم<sup>(١)</sup>.

١٥ - عن أنس رضي الله عنه أن رجلين خرجا من عند النبي ﷺ في ليلة مظلمة، وإذا نور بين أيديهما حتى تفرقا فتفرق النور معهما»، وقال معمر عن ثابت عن أنس: «إن أسيد بن حضير ورجلاً من الأنصار»، وقال حماد: أخبرنا ثابت عن أنس: «كان أسيد بن حضير وعباد بن بشر عند النبي ﷺ»<sup>(٢)</sup>.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «فأما رواية معمر فوصلها عبد الرزاق في مصنفه عنه، ومن طريقه الإسماعيلي بلفظ: «إن أسيد بن حضير ورجلاً من الأنصار تحدثا عند رسول الله ﷺ حتى ذهب من الليل ساعة في ليلة شديدة الظلمة، ثم خرجا ويبد كل واحد منهما عصية فأضاءت عصا أحدهما حتى مشيا في ضوئها، حتى إذا افترت بهما الطريق أضاءت عصا الآخر فمشى كل منهما في ضوء عصاه حتى بلغ أهله»، وأما رواية حماد بن سلمة فوصلها أحمد والحاكم في المستدرک بلفظ: «إن أسيد بن حضير وعباد بن بشر كانا عند النبي ﷺ في ليلة ظلماء حندس،

(١) تحفة الأحوذى، للمباركفوري، ٤٠١/٧ .

(٢) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب منقبة أسيد بن حضير وعباد بن بشر، ٣/٢٧٠، برقم ٣٨٠٥ .

فلما خرجا أضاءت عصا أحدهما فمشيا في ضوئها، فلما افتردت بهما الطريق أضاءت عصا الآخر»<sup>(١)</sup>.

وهذه من كرامات الأولياء؛ فإن أهل الصلاح إذا حصل لهم أمر خارق للعادة فهي كرامة، أما إذا حصل ذلك لفاسق فهي من عمل الشيطان، وإذا حصل لإنسان مجهول مستور فيعرض أمره على الكتاب والسنة. وهذا النور الذي حصل لهذين الصحابين مبني على نور الإيمان والتقوى، فاستنار الباطن، وجعل الله نوراً في عصا كل واحد منهما، فاستنار الظاهر، وليس من شرط أن يحصل ذلك لكل مؤمن، وإنما ذلك راجع إلى الله عز وجل.

١٦ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين»<sup>(٢)</sup>.

ذكر العلامة الملا علي القاري أن معنى: «أضاء له من النور» أي: في قلبه، أو قبره، أو يوم حشره في الجمع الأكبر، «ما بين الجمعتين» أي: مقدار الجمعة التي تليها من الزمان، وهكذا كل جمعة تلا فيها هذه السورة»<sup>(١)</sup>.

قال الطيبي رحمه الله: «أضاء له» يجوز أن يكون لازماً، وقوله: «ما بين الجمعتين» ظرف، فيكون إشراق ضوء النور فيما بين الجمعتين، بمنزلة إشراق

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ١٢٥/٧.

(٢) البيهقي ٢٤٩/٣، والحاكم في المستدرک وصحح إسناده، ٣٦٨/٢، والدارمي موقوفاً في حكم الرفع، في فضائل القرآن، باب في فضل سورة الكهف، ٣٢٦/٢، برقم ٣٤١٠، وصححه الألباني بطرقه، في إرواء الغليل، ٩٤/٣، برقم ٦٢٦.

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٦٧٨/٤.

النور نفسه مبالغة، ويجوز أن يكون متعدياً، والظرف مفعول به»<sup>(١)</sup>.

١٧ - وذكر مالك رحمه الله: أنه بلغه أن لقمان الحكيم أوصى ابنه فقال: «يا بني جالس العلماء وزاحمهم بالركب، فإن الله يُحيي القلوب بنور الحكمة، كما يحيي الله الأرض الميتة بوابل السماء»<sup>(٢)</sup>.

فقوله: «جالس العلماء وزاحمهم بالركب» عبارة عن مزيد القرب منهم، وقوله: «فإن الله يحيي الأرض بنور الحكمة» هي تحقيق العلم وإتقان العمل، والإصابة في القول والفعل، وهي العلم المشتغل على الفقه في الدين، والمعرفة بالله مع نفاذ البصيرة، وتحقيق الحق للعمل، والكف عن الباطل<sup>(٣)</sup>.

فإنه سبحانه يحيي القلوب بذلك كما يحيي الأرض بالمطر، وهذا يؤكد على فضل العلم النافع والعمل الصالح؛ ولهذا الفضل قال محمد بن سيرين رحمه الله: «إن قوماً تركوا طلب العلم، ومجالسة العلماء، وأخذوا في الصلاة، والصيام حتى يبس جلد أحدهم على عظمه، ثم خالفوا السنة فهلكوا، وسفكوا دماء المسلمين، فوالذي لا إله غيره ما عمل أحد عملاً على جهل إلا كان يفسد أكثر مما يصلح»<sup>(٤)</sup>.

١٨ - وعن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «تُعَرَضُ

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، ١٦٧٥/٥ .

(٢) موطأ الإمام مالك، ١٠٠٢/٢ .

(٣) انظر: شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، ٤/٥٥٣، والحكمة في الدعوة إلى الله صلى الله عليه وسلم، لسعيد بن علي بن وهف القحطاني، ص ٢٧ .

(٤) أخرجه ابن عبد البر في الاستذكار بسنده، ٢٧/٤٣٤، برقم ٤١٧٧٩ .

الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأَيُّ قلب أُشربها نُكت فيه نُكتٌ سوداءٌ، وأَيُّ قلب أنكرها نُكت فيه نُكتةٌ بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مبراداً كالكوز مجحياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أُشرب من هواه»<sup>(١)</sup>.

الفتنة أصلها في كلام العرب: الابتلاء، والامتحان، والاختبار، ثم صارت في عرف الكلام لكل أمر كشفه الاختبار عن سوء، فقيل: فُتن الرجل إذا وقع في الفتنة وتحوّل من حال حسنة إلى سيئة.

وقوله ﷺ: «تُعرض الفتن على القلوب عرض الحصير عوداً عوداً»، والمعنى أن الفتن تلصق بعرض القلوب: أي بجانبها كما يلصق الحصير بجانب النائم، ويؤثر فيه شدة التصاقها به، وتُعاد وتُكرر شيئاً بعد شيء، فأَيُّ قلب أُشربها فدخلت فيه دخولاً تاماً وألزمها وحلّت منه محلّ الشراب نقط فيه نقطة سوداء، ولا يزال هذا القلب يشرب الفتن كلما عُرضت عليه كما يشرب الإسفنج الماء حتى يسودّ وينتكس، فيكون كالكوز المائل المنكوس، «والكوز هو ما اتسع رأسه من أواني الشرب إذا كانت بعُرى وآذان، فإن لم يكن لها عُرى فهي أكواب»<sup>(١)</sup>.

فإذا انتكس القلب وصار مكبوباً منكوساً عرض له اشتباه المعروف عليه بالمنكر، وربما استحكّم عليه المرض حتى يعتقد المعروف منكراً والمنكر معروفاً، والسنة بدعة والبدعة سنة، والحق باطلاً والباطل حقاً،

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، ١/١٢٨، برقم ١٤٤.

(١) مشارق الأنوار، للقاضي عياض، ١/٣٤٩.

وبذلك يحكم هواه على ما جاء به الرسول ﷺ، وينقاد له ويتبعه.  
والقلب الآخر: قلب أبيض قد أشرق فيه نور الإيمان، وأزهر فيه مصباحه، فإذا عرضت عليه الفتن أنكرها، وردّها فازداد نوره، وإشراقه، وقوته؛ ولقوة هذا القلب وشدّته على عقد الإيمان، وسلامته من الخلل شُبّه بالحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء، فهذا القلب لا تلتصق به الفتن ولا تؤثر فيه، بخلاف القلب الأسود المربادّ «والمربادّ: هو الذي بين البياض والسواد والغبرة، مثل لون الرمادة»<sup>(١)</sup>، فهذا القلب قد اسودّ، وقُلب، ونكس حتى لا يعلق به خير ولا حكمة، فشُبّه بالكوز المنحرف الذي لا يثبت فيه الماء، فإنه قد دخل قلبه بكل معصية تعاطاها ظلمة، وإذا صار كذلك افتتن، وزال عنه نور الإسلام، والقلب مثل الكوز فإذا انكبّ انصبّ ما فيه ولم يدخله شيء بعد ذلك<sup>(٢)</sup>.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «والفتن التي تعرض على القلوب هي أسباب مرضها، وهي فتن الشهوات، وفتن الشبهات، وفتن الغي والضلال، وفتن المعاصي، والبدع: فتن الظلم والجهل، فالأولى: توجب فساد القصد والإرادة، والثانية: توجب فساد العلم والاعتقاد»<sup>(١)</sup>، وقال رحمه الله: «وقد قسم الصحابة ﷺ القلوب إلى أربعة كما صح عن حذيفة بن اليمان ﷺ قوله<sup>(٢)</sup>:

(١) انظر: مشارق الأنوار، للقاضي عياض، ٢٧٩/١.

(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم، ٥٣٠-٥٣١، وإغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم، ١٦/١.

(١) المرجع السابق، ١٧/١.

(٢) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ١٧/١.

«القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر، فذلك قلب المؤمن، وقلب أغلف، فذلك قلب الكافر، وقلب منكوس، فذلك قلب المنافق عرف ثم أنكر، وقلب فيه مادتان: إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل شجرة يمدّها ماء طيب، ومثل النفاق مثل قرحة يمدّها قيح ودم، فأيهما غلب عليه غلب»<sup>(١)</sup>.

**فالقلب الأجرد:** المتجرّد مما سوى الله ﷻ ورسوله ﷺ، فقد تجرّد وسلم مما سوى الحق، وفيه سراج يزهر، وهو مصباح الإيمان ونوره، فهو متجرّد سالم من شبهات الباطل وشهوات الغي، وقد أشرق واستنار بنور العمل والإيمان.

**والقلب الأغلف:** قلب الكافر، لأنه داخل في غلافه وغشائه، فلا يصل إليه نور العلم والإيمان، فإذا ذكر له تجريد التوحيد وتجريد المتابعة للنبي ﷺ ولّى مدبراً.

**والقلب المنكوس المكبوب:** قلب المنافق وهذا شر القلوب وأخبثها؛ فإنه يعتقد الباطل حقاً ويوالي أصحابه، والحق باطلاً ويعادي أهله، ومع ذلك يُبطن الكفر، ويُظهر الإيمان.

**وأما القلب الذي له مادتان:** فهو القلب الذي لم يتمكّن فيه الإيمان، ولم يُزهر فيه سراج، حيث لم يتجرّد للحق المحض، الذي بعث الله ﷻ به

(١) ذكره ابن تيمية موقفاً على حذيفة ﷺ، وعزاه إلى أبي داود السجستاني وذكر إسناده، ثم قال: وقد روي مرفوعاً، وهو في المسند مرفوعاً. كتاب الإيمان لابن تيمية، ص ٢٨٨، قلت: هو في المسند، ١٧/٢، وقال العلامة الألباني: «قلت: والمرفوع إسناده ضعيف، والصحيح موقوف»، كتاب الإيمان لابن تيمية، ص ٢٨٨ ح.

رسوله ﷺ، فتارة يكون للكفر أقرب منه للإيمان، وتارة يكون للإيمان أقرب منه للكفر، والحكم للغالب وإليه يرجع<sup>(١)</sup>.

١٩ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يرفعه: «طوبى للغرباء» فقيل: من الغرباء يا رسول الله؟ قال: «أناس صالحون في أناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم» قال: وكنا عند رسول الله ﷺ يوماً آخر حين طلعت الشمس، فقال رسول الله ﷺ: «سيأتي أناس من أمتي يوم القيامة نورهم كضوء الشمس» قلنا: من أولئك يا رسول الله؟ فقال: «فقراء المهاجرين الذين تَتَقَّى بهم المكاره، يموت أحدهم وحاجته في صدره، يُحْشَرُونَ في أَقْطَارِ الْأَرْضِ»<sup>(٢)</sup>، وهذا النور أعظم ما ورد للمؤمن يوم القيامة؛ ولهذا قال الإمام ابن القيم رحمه الله عند ذكره لنور المؤمنين يوم القيامة، وأنه يكون على حسب قوة إيمانهم، ويقينهم، وإخلاصهم: «فمنهم من يكون نوره كالشمس، ودون ذلك القمر، ودونه كأشد كوكب في السماء إضاءة...»<sup>(٣)</sup>.

٢٠ - قال يهودي للنبي ﷺ: أين يكون الناس يوم تُبدَّل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر»<sup>(٤)</sup>، قال الإمام القرطبي رحمه الله: «والجسر - بفتح الجيم

(١) انظر: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ١/١٨-١٩.

(٢) أخرجه أحمد في المسند، ٢/١٧٧، وصححه الألباني بطرقه، في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٤/١٥٣، برقم ١٦١٩، وصححه أحمد محمد شاكر، في ترتيبه وشرحه للمسند، ١٠/١٣٥-١٣٦، برقم ٦٦٥٠، و١٢/٢٨، برقم ٧٠٧٢، و١٢/٧٩، برقم ٧٠٧٢.

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية لغزو المعطلة والجهمية، ٢/٨٦.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الحيض، باب صفة مني الرجل والمرأة وأن الولد مخلوق من مائهما،

وكسرها - ما يُعبر عليه، وهو الصراط هنا، و«دون» بمعنى فوق، كما قال في حديث عائشة رضي الله عنها: «(على الصراط)»<sup>(١)</sup>، وقد جاءت الأحاديث التي تدلّ على أن الناس عند تبديل الأرض غير الأرض يكونون على الصراط بألفاظ متقاربة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله ﷺ: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ»، فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله؟ فقال: «(على الصراط)»<sup>(٢)</sup>، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «(وفي رواية الترمذي «على جسر جهنم»؛ ولأحمد من طريق ابن عباس عن عائشة: «على متن جهنم»)<sup>(٣)</sup>، فظاهر الأدلة تقتضي أنه يذهب بهذه الأرض ويؤتى بأرض أخرى»<sup>(٤)</sup>، وقد جاء الحديث الصحيح في صفة الأرض المبدّلة، وأنها بيضاء عفراء، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقرصة النقي، ليس فيها علم لأحد»<sup>(٥)</sup>، والأرض العفراء: البيضاء بياضاً ليس ناصعاً بل يضرب إلى الحمرة، وقوله

= ٢٥٢/١، برقم ٣١٥ .

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، ١/ ٥٧٤، ٧/ ٣٥٢، وانظر: إكمال إكمال المعلم شرح صحيح مسلم للأبي، ١٥٦/٢ .

(٢) مسلم، كتاب صفة القيامة، والجنة والنار، باب في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة، ٤/ ٢١٥٠، برقم ٢٧٩١، والآية: ٤٨، من سورة إبراهيم.

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ١١/ ٣٧٦، ورواية الترمذي هي في سننه، برقم ٣١٢١ .

(٢) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي، ٧/ ٣٥١ .

(٣) متفق عليه: البخاري، كتاب الرقاق، باب قبض الله الأرض يوم القيامة، ٤/ ٢٤٨، برقم ٦٥٢١، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة،

٤/ ٢١٥٠، برقم ٢٧٩٠ .

«كقرصة النقي» القرصة: الخبزة، والنقي: هي النقي من الغش والنخال، وقوله: «ليس فيها علم لأحد»: أي ليس فيها علامة لأحد، ولا علامة سكنى، ولا بناء، ولا أثر، ولا شيء من العلامات التي يُهتدى بها في الطرقات: كالجبل، والصخرة البارزة، وفيه تعريض بأرض الدنيا، وأنها ذهبت<sup>(١)</sup>.

٢١ - وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإنّ الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشحّ، فإنّ الشحّ أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»<sup>(١)</sup>.

قال الإمام القرطبي رحمه الله: «ظاهره أن الظالم يعاقب يوم القيامة، بأن يكون في ظلمات متوالية، يوم يكون المؤمنون في نور يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، حين يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾، فيقال لهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾»<sup>(٢)</sup>، وذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله: أن الظلم يشتمل على معصيتين: أخذ مال الغير بغير حق، ومبارزة الرب بالمخالفة، والمعصية فيه أشد من

(١) انظر: الفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي، ٣٥٠/٧، وشرح النووي على صحيح مسلم، ١٤٠/١٧، وفتح الباري، لابن حجر، ٣٧٥/١١.

(١) مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، ١٩٩٦/٤، برقم ٢٥٧٨، وأخرجه البخاري في كتاب المظالم، باب الظلم ظلمات يوم القيامة، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بلفظ: «الظلم ظلمات يوم القيامة»، ١٣٦/٣، برقم ٢٤٤٧.

(٢) الفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، ٥٥٦/٦، والآية: ١٣ من سورة الحديد، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم، ٣٧٠/١٦، وإكمال إكمال المعلم بشرح صحيح مسلم، للأبي، ٥٣٤/٨.

غيرها؛ لأنه لا يقع غالباً إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار، وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب؛ لأنه لو استنار بنور الهدى لاعتبر، فإذا سعى المتقون بنورهم الذي حصل لهم بسبب التقوى اكتنفت ظلمات الظلم الظالم حيث لا يغني عنه ظلمه شيئاً<sup>(١)</sup>، وقوله: «اتقوا الشحَّ، فإنَّ الشحَّ أهلك من كان قبلكم»، قال جماعة: الشحَّ: أشدُّ البخل، وأبلغ في المنع من البخل، وقيل: هو البخل مع الحرص، وقيل: الشحَّ: الحرص على ما ليس عندك، والبخل: الامتناع عن إخراج ما حصل عندك<sup>(٢)</sup>. ولا شك أن الظلم ثلاثة أنواع:

١ - ظلم الشرك، ٢ - ظلم المعاصي، ٣ - ظلم النفس، وبمعنى أوضح: نوعان: ظلم العبد نفسه، وهو نوعان: الظلم بالشرك، والظلم بالمعاصي، وظلم العبد غيره. والله ﷻ الموفق والمعين والهادي إلى سواء السبيل.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.



(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ١٠٠/٥ .

(٢) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي، ٥٥٧/٦، وشرح النووي على صحيح مسلم، ١٧١/١٦، وإكمال إكمال المعلم شرح صحيح مسلم، للأبي، ٥٣٤/٨ .

